حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

التعليل والتفسير عند مفضل بن أبي الفضائل في كتابه "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد"

أميرة عبد الموجود أحمد محمد*

جامعة عين شمس- كلية الآداب- قسم التاريخ

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أحد مؤرخى مصر فى العصر المملوكى وهو "مفضل بن أبى الفضائل"، والترجمة له بحيث نظهر –ما أمكن– من المعرفة مما يحيط به وبشخصيته. ثم نقوم بدراسة مصنفه التاريخي" النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد " دراسة تحليلية مفصلة، نستطيع الخروج منها بتصور واضح عن فكر المؤرخ وثقافته، ومرجعيته، ومنهجه التاريخى، ومعرفة مدى صحة ما ورد في مصنفه، وذلك بمقارنة بعض رواياته التاريخية بما ورد في بعض المصادر التاريخية المعاصرة له وذلك للوصول إلى رؤية واضحة لتقدير قيمة الكتاب بوصفه مصدراً من مصادر التاريخ الإسلامي فى العصر المملوكى .

وتتطرق تلك الدراسة، إلى"التعليل والتفسير"، عند مفضل موضحًا من خلاله المقاصد والغايات فى مصنفه، ثم كانت الخاتمه، وفيها عرض لأهم نتائج الدراسة، وأعقبتها بقائمة للمصادر والمراجع العربية والأجنبية التى أستفدت منها .

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٨.

المقدمة

تعد الدراسات التاريخية المهتمة بدراسة المؤرخين ومناهجهم من أكثر الدراسات قيمة في دعم مناهج البحث العلمي الحديث وذلك لأنها تظهر لنا صورة من صور تطور المنهجية التاريخية للمرحلة التى كُتبت فيها، ومن أجل التعرف على مصادرها وأهميتها عُني الباحثون بدراسة المؤرخين ومناهجهم في كتابة التاريخ كمهمة للكشف عما أنتجه الفكر العربي الإسلامي في مختلف ميادين المعرفة.

حيث شهد العصر المملوكي(٦٤٨–٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)ازدهارًا كبيرًا فى حركة التدوين التاريخي، وظهر العديد من المؤرخين الذين أسسوا ما أصطلح على تسميته بمدرسة التاريخ المصري، وكتب المؤرخون المصريون في عهد دولة المماليك البحرية تواريخ عصورهم وما عاهدوا، وسجل بعضهم المذكرات التاريخية فى ثنايا كتبهم،من هؤلاء المؤرخين من كان يقدم تاريخًا عالميًا أو تاريخًا إسلاميًا عامًا، وبعضهم عمد إلى أحد كتب التاريخ فذيل عليه بتاريخ عصره. مثلما فعل مفضل بن أبي الفضائل أحد مؤرخي مدرسة التاريخ المصري والمنوط دراسته

تكمن أهمية الدراسة واختيار الباحثة للمؤرخ مفضل بن أبى الفضائل فى أنه قدم مؤلفًا تاريخيًا هامًا بالنسبة للتاريخ المملوكى، فضلًا عن معاصرة مفضل لبعض سلاطين المماليك البحرية وخاصة الذى ذكرهم فى مؤلفه النهج السديد والذى كان يحمل الأحداث التاريخية الهامة خاصة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . فضلًا عن المعلومات التى قدمها مفضل عن الكنيسة والتى تعتبر أنفرادا له أنذاك .

لذلك وجهنا قبلتنا نحو دراسة التفسير والتعليل لدي مفضل في كتابه النهج السديد لنقف علي بعض سمات العصر المملوكي سواء كانت سمات تمثلت في التفسيرات العقلانية أو التفسيرات الغير العقلانية أو التفسيرات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو الاخلاقية، ولا يمكننا أن نغفل أن مفضل لديه قدرة لابأس بها على أن يكون مؤرخاً متفاعلًا مع الأحداث فكان يتدخل فى بعض الأحيان لإبداء رأيه وترجيح رأى علي آخر.

فضلًا عن مقاصده في كتابته لمؤلفه النهج السديد التي تمثلت فى استعراض الموضوعات التاريخية للتذييل على تاريخ ابن العميد المعروف بالمكين والتى تتوقف كما هو معلوم تفاصيل حولياته ومروياته إلى فترة حكم الظاهر بيبرس لمصر، وقد أراد أيضا استكمال ما بدأه الاخر فوضع كتابًا ليكون متممًا له، على نهج ما كان معروفا فى الكتابات التاريخية وغيرها فى العصور الوسطى فيما عرف بالتذييل أو التكملة.

بالإضافة إلى أن مفضل بن أبى الفضائل من المؤرخين الذين أرادوا نشر فضائل المسيحية وتعليم المحبة ومعرفه أخبار الرعاة من خدام الكلمة منخل الكتابة التاريخ الكنسى والبطاركة الي عاقبة وغيرهم، وضمن الرهبان الذي ذكرهم مفضل (الراهب برصوما العريان)، مبينًا قدرته على التنبؤ بالغيب؛ فضلاً عن قدرته فى شفاء الناس والسعه فى زياده أرزاقهم ضاربا المثل بقصص عديدة.

ناهيك عن مقصده فيذكر التاريخ الكنسي ورهبانه والاضطهاد الذى شاهدوه ان ذاك ولكن على استحياء مثل ذكر هل بعض الحوادث منها حادثه الراهب الحبيسسنة ٦٦٣هـ، الذى أمر السلطان بيبرس بقتله لكونه رفض أن يطلعه على المال الذى عثر عليه، والحادثة التى وقعت بالقاهرة سنة ٧١٤ه/١٣١٤م حيث ثار بالقاهرة شخص من سكان الحسينية وصار يضرب بالسيف من يظفر به من اليهود والنصارى.

ولم يكتفي بذلك بل كان لديه هدف اخر وهو إلقاء الضوء علي الفساد الكنسي في هذا العصر وتمثل فيذكره إثبات حالة الرشوة داخل الكنيسة عندما ذكر أخبار البطريرك، وكان

مفضل الوحيد المنفرد بتلك الحادثة عن مؤرخي عصرهم ما يدل علي معرفته الدقيقة عن الحياة داخل العالم الكنسي.

وقد اعتمدت الباحثة على المنهج التحليلي للنصوص والمضمون، للوقوف على دلالاتها، بالإضافة للمنهج المقارن الذى اتبعته الباحثة للوقوف على صحة ما ورد فى الكتاب واستخدمت به مقارنات بين مفضل واقرانه .

التعليل والتفسير :-

يلاحظ المطلع على تاريخ النهج السديد أن مفضل لديه قدرة لا بأس بها على أن يكون مؤرخًا متفاعلًا مع الأحداث فكان يتدخل في بعض الأحيان لإبداء رأيه وترجيح رأى على آخر، إذ أبدى اهتمامًا إلى حدٍ ما بتعليل وتفسير الأحداث التاريخية، ومن ذلك يمكن تقسيم الرؤى التفسيرية لدى مفضل مثلا يأتي : **تفسيرات عقلانية** :من ذلك على سبيل المثال ما رواه عن حادثة مقتل الأمير بيدرا سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م إذ ذكر قائلًا :**" فتفلل عن بيدرا من كان معه من الأمراء ولم يبق حوله إلا نفران أحدهما أبيك مملوك طقصوا والآخر ايدغدي شقير الظاهري المعروف بالمسعودي فقتل وقتلا، وقيل قتله موسى أخو حمدان بن صلغية، لأنه كان أول من هاجم عليه وضارب له، والصحيح أن السيوف أخذته من كل جانب ولم يعلم من كان له ضارب، قلت : وهذا أحمد بن صلغية تركماني الجنس، كان في خدمة كيختوا ملك التتار ووفد في الدولة المنصورية إلى الديار المصرية لما قتل كيختوا، فقربه الملك المنصور وأعطاه إمرة، واستمر به الأشرف على إمرته، وهو " فتنى يقيم في كل دولة فتنة "، ويلقى بين الجموع في كل وقت، فلو كان بيدرا مع المقدور لما سرى إلى القلعة كما فعل الظاهر لما قتل المظفر قطز بالقصير، فكان ذلك أنجح قصداً وأرجح رأيا، وإنما الأمر لله، والملك بيد الله "** [١] .

كذلك تفسيره للأحداث التي أوردها عن مدينة دلهى في الهند سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، نقلًا من الجزري الذي بدوره أخبر أنه**"لا يوجد بالهند يهودي ولا نصراني"** [٢]، إلا أنّ مفضل ينفى تلك الرواية ويضيف معللًا:"**وهذا أمر مستحيل،فإنّ الأخبارتواترت بخبر الكنيسة التيفي جزيرة أسقوطره التي على اسم توما صاحب الكف الحي،أحد حواري السيد المسيح، وكونها وسط الجزيرة والماء محيط بها، وإذا كان في ليلة العيد يرسل الله تعالى ريحًا عاصفا ثم يخف الماء إلى أن يمكن خوظه فيعبرون النصارى إلى تلك الكنيسة ويعملون العيد كعادتهم، وعند خروجهم يمسك أحدهم في الكنيسة حتى لا يمكنه الحركة ويقيم في الكنيسة يخدمها تلك السنة إلى يوم العيد المقبل فإذا جاء الناس إلى العيد وجدوه كما مات وهو سخن الجسد فيواروه التراب، وعند كمال العيد أيضا يمسك منهم آخر كذا جرت عادتهم كل سنة ..... وهذه من الأمور المستحيل عدم النصارى ببلاد الهند بسببها"**[٣] .

كما فسر سبب افتخار ملوك سرنديب*بالجوهرة الحمراء وأهميتها بقوله :**"هو جوهر شفاف وزنه ثلاثونمثقالًا،وليس في خزائن ملوك الدنيا جميعها مثله،وهو الذي تفتخربه ملوك الصين ويتوارثونهإلىالآن وإذا حضر رسل الملوك إليهم يأخذه الملك بيده دائمًا ويمسح به شاربه، وفي أعيادهم ومواسمهم يركب ذلك الملك الفيل الأبيض، ويأخذ على يده بأز*ويضع الجوهر على البأز،ثم ينادي مناد ويقول:هذاملك الدنيا، راكب ملك الوحش،على يده ملك الطير، يعلوه ملك الأحجار والجواهر، فتعظم نفس الملك عندهإلى الغاية ويحصل له بذلك سرور عظيم، ثم ينادي مناد آخر من ورائه ويقول: يموت ثم**

يموت ثم يموت سبحان الحي الذي لا يموت،فعند ذلك تتهذب نفس الملك، وتتضع، وهؤلاء المنادين ما رتبوا إلا بحكمة عظيمة،وهذا غاية الأدب مع الله تعالى"(٤).

فسر مفضل كذلك سبب تحويل "وادي سرنديب" إلى مكان سياحي يقصده الفقراء للزيارة قائلًا:**"والزوار ما تتم عندهم الزيارة إلا بأربعة أماكن،وهي غاية السياحة، وهي: زيارة رتن معمر الصحابي*، وقدم أبونا آدم*،وديرمر توما* أحد الحواريين، والسلطان محمود الذي فتح بلاد الهند وذلك غاية مقصود المسافرين من الفقراء"** (٥)

كما يميل مفضل إلى التحليل والتعليل فيما كان يعرض من أخبار منها على سبيل المثال، عندما أظهر اهتمامًا بمذهب الملك خربندا إيلخان المغول، فيذكر أنهكان على مذهب أهل السنه عندما تولى الحكم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، إذ ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها "الشهادتين وأبوبكر وعمر وعثمان وعلى"، حتى أعلن الرفض سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ويذكر روايةتفيد أن الملك"خربندا" توفى وهو على التشيع معللًا ذلك عندما لجأ الأمير "حميضه" إلى "خربندا" يستمد منه العون في مواجهة المماليك ولتثبيت مركزه في إمارة مكة، فساعده خربندا وجهز معه جيشا وأرسل معه الروافض بشرط (أنه إذا ملك حميضة مكة يسير الروافض إلى المدينة ويتعرضوا لنبش الشيخين أبو بكر وعمر ويقيم الرفض في بلاد الحجاز)، إلا أن القدر كان مغايرًا لما خططوا له، إذ توفى "خربندا "، وتولى الحكم بعده "أبو سعيد" الذي كان مغايرًا لسياسته تماما وأبطل ذلك (٦)، في حين يروي " بيبرس المنصورى "روايه مغايرة مؤكدًا فيها أن خربندا تراجع عن التشيع قائلًا :**"وسبب قتل خربندا لشرف الدين اللاوي شيخ الشيعة،الذي كان به يقتدى وبهدايته في التشيع يهتدي، أنه كان قد أخذه بالرفض وحمله عليه وزينه له وحببه إليه، فتابعه مده ثم انكشف له ضلال مذهبه وفساد رأيه وعقيدته، ورأى أن مذهب السنة أفضل واعتقاد الجماعة أمثل، فجنح إليه ونزل عما كان عليه وأخذ شيخه المذكور بالرجوع إلى الصواب . فلما لم يفعل قتله"** (٧)، أما الدواداري في روايته أقرب لرواية مفضل قائلًا :**"كان خدابنداه قبل موته قد فسدت عقيدته،وأظهر أمورًا قباحًا : وكان الذى حسن له ذلك شخص ..... ادعى أنه شريف، وانتحل نسبا ليس بصحيح، ولعب بعقل خدابنداه، وكثير من أرباب دولته وكبارها . ثم إن المذكور بعد وفاة خدابنداه قتل أشر قتلة مع جميع أهله وأقاربه ومن كان يقول بقوله،وقام بذلك جوبان بحسن إسلامه وعقيدته في حديث طويل،ذلك ملخصه، والله أعلم "** (٨).

كما فسر مفضل عن العامل الرئيسي في توجيه بعض الحوادث، ومنها القبض على الأمير تنكز نائب الشام، إذ ذكر الأسباب التي أدت إلى ذلك تفصيلاً مفردًا لها تحت عنوان:**" ذكر أمور نقم بها السلطان على الأمير سيف الدين تنكز نايب الشام"**، وأهمها أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون توهم بأن مؤامرة تحاك ضده من قبل الأمير تنكز، للود الذي بينه وبين " ابن تلغادر" أمير التركمان_الذي تمرد عليه_فعدها مفضل " **من أكبر ذنوب نائب الشام عند السلطان"**،فأمر بقتله بعد تعذيبه سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م (٩)، أيضا الصاحب " أمين الدين بن الغنام" وأولاده:" **لما وقع القبض على نائب الشام كتب الصاحب أمين الملك أوراقا بما يتعين عليه وبالودائع التي كانت له عند الناس وأراد بذلك صلاح أمره عند السلطان فكانت أكبر أسباب هلاكه، وكان أمره في ذلك كما قيل : كالجاذع أنفه بكفه، والباحث عن حتفه بظلفه"** (١٠).

كذلك تقديره لمجئ غازان في حملته الأولى على بلاد الشام بسبب :" **توجه جماعة من الأمراء إلى بلاد التتار"** موضحًا ذلك بقوله :**"اتفق من الأمراء جماعة منهم ..... فقفزوا إلى جهة التتار وعدوا الفرات ووصلوا إلى ملكهم قازان ..... واجتمعوا به فأقبل**

عليهم ..... وكان ذلك من الأسباب التي اقتضت مسير قازان إلى البلاد الشامية وحضور عساكر التتار إلى المماليك الشرقية الإسلامية "(١١).

كما اهتم مفضل بتفسير بعض الألفاظ الغامضة إذ كان يقطع سياق الحدث التاريخي ليعرضها، منها على سبيل المثال تفسيره لإطلاق لقب "الأزرق" على الأمير بكتوت*قائلًا:" **وإنما سمى الأزرق لأنه كان أخيف العينين ..... قلت والأخيف هو الذي تلون إحدى مقلتيه سوداء والأخرى زرقاء"**(١٢)، أيضا ذكره سبب تسمية صاحب برشنونة بذلك الاسم قائلًا:" **صاحب برشنونة منسوب إلى مدينة تسمى برشنونة وكل من ملكها يسمى الريدراكون"**(١٣)، كذلك إيضاحه لمصطلح (البابا) بقوله:"**والباب عند الفرنج بمقام الخليفه عند المسلمين،أقول، والباب ما يمكن أحد من الملوك يخالف له أمر، بل خليفة المسلمين يخالف أمره الملوك المتغلبين"** (١٤)، أيضا ذكره سبب تسمية ملك الصين قان الكبير بذلك الاسم قائلًا:" **جنكري خان بالراء غير العجمة،وهو اسم يطلق على ملك الصين، لأنه مركب من(جين) وهو الصين،و(كرى) وهو بالتركية ملك، و(الخان) هو ملك، فمعنى ذلك الاسم (ملك ملك الصين)** (١٥).

كما يتضح لنا من خلال مطالعة كتاب "النهج السديد" مدى عناية مفضل **بالتفسير الاقتصادي والاجتماعي** وتأثيره على الأوضاع السياسية وهو يتفق في ذلك مع معاصريه اليونيني، وبيبرس المنصوري، والجزري، والنويري، والدواداري، واليوسفي، وتاريخ سلاطين المماليك لمؤلف مجهول، وقد أشرنا في فصل سابق إلى أهمية التاريخ الاقتصادي لدى مفضل، وذكرنا أنه تطرق إلى أخبار الأزمات الاقتصادية، وأولى اهتماما لمسألة الأسعار وتفاوتها من وقت لآخر، فضلًا عن أخبار الغلاء والكوارث الطبيعية التي صور من خلالها معاناة الناس، ولم يغفل أخبار المصادرات التي تعرض لها الأمراء والعربان (١٦).

كما علق مفضل أهمية كبيرة على المال وتأثيره على الأحداث التاريخية، حتى أنه قد يكون عاملًا رئيسًا في الوصول إلى المناصب الكبرى من خلال تقديم الرشوة، فأورد مفضل في حوادث سنة ٦٧٦هـ، عن تنافس راهبان أحدهما اسمه يوحنا والآخر غبريال على منصب البطريكية، فوقع الاتفاق على غبريال لتولي المنصب وبالفعل تمت رسامته بطريركًا رقم ٧٧ . ومع ذلك لم يرض الحزب المؤيد ليوحنا فعمدوا على استرضاء أرباب الحكم ليشدوا أزرهم في انتخاب يوحنا وإبطال رسامة غبريال وبالفعل تمكنوا من إقامة يوحنا بطريركًا رقم ٧٨ باسم يؤانس السابع . **(..... فأبطله هذا الأب ووزن خمسة آلاف دينار عينا فعند ذلك عزل الصاحب بهاء الدين ابن حنا غبريال .....)**(١٧).

كما كان المال عاملًا أساسيًا في انقلاب الأمراء على الملوك، إذ انقلب أمراء دمشق على الملك كتبغا سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، لأنه لم يوزع على الأمراء ومقدمي العساكر الهدايا والمنح بوصفها عادة للملوك " (..... **فلم يخلع عليهم ولا وصلهم عن ذلك بشيء من الصلات كما جرت به من الملوك العادات، فإن عادة الملوك إذا دخلوا إلي مدينة مثل دمشق المحروسة أن يفرقوا العطايا والصلات على الأمراء الأكابر والأصاغر ومقدمي العساكر ..... لا سيما ملك في أول دولته وبداية سلطنته . لكن ذهل عن الصواب ..... فاقتضت تلك الأحوال اتفاق الأمراء عليه باطنا"**(١٨).

كما تمرد الزيدية على الملك "المؤيد" ملك اليمن سنة ٧٠٠هـ /١٣٠٠م،بسبب قلة ما يصلهم منه كل عام، مطالبين بزيادة الأموال لمائة ألف دينار في كل سنة مقابل حماية

الطرقات وأن لا يؤذوا أحدًا، وأن يكونوا في طاعة صاحب اليمن متى طلبوا حضروا، وكان مقدار ما يصلهم عشرين ألف دينار مصرية (..... **هذا الذي لنا عليه مقرر لا يكفينا ..... نحن لا عدنا نوافقك حتى تقرر لنا مائة ألف دينار في كل سنة، فإن نحن عمارة البلاد وبناء الصلاح والفساد)**[١٩].

وفسر مفضل حركات العامة تفسيرًا اقتصاديًا، إذ كان يرجع ذلك إلى الإجراءات الاقتصادية التعسفية التي يتخذها السلطان كي يوفر ما يحتاج إليه من أموال الجند،مثل الضرائب التي أحدثها قطز على الرعية لمواجهة المغول سنه ٦٥٨هـ/١٢٥٩م، والتي كانت متمثلة في **" تصقيع الأملاك، وتقويمها وأخذ ثلث الزكاة، ودينار على كل إنسان"**، وعندما جاء بيبرس أراد أن يستجلب رضا الرعية ويبث في نفوسهم عوامل المحبة له بغية تدعيم مركزه في الحكم، فقام بإلغاء تلك الضرائب التي أحدثها قطز [٢٠]، ورغم ذلك أشار مفضل إلى أن بيبرس كان**"كثير المصادرات للرعية والدواوين، خصوصًا لأهل دمشق، فإنه كان يكرهم، ويكرهونه"**[٢١].

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م **"جُبي من أرباب الأموال والمعاش والتجارات والصناعات في مصر والقاهرة حول مائة ألف دينار"** [٢٢]، كذلك فُرض على أهل دمشق سنة ٧١١هـ/١٣١١م**"استخدام ألف وخمسمائة فارس، وكانت العادة مائتى فارس"**، مما جعل الرعية يتذمرون ويتضجرون .ومن ثم فى ذلك العام **"أخذ المال حتى من أوقاف الجوامع والمساجد ومكاتب السبيل وغير ذلك، ولم يعف من ذلك أحدا "**[٢٣].

فضلًا عن أخبار الغلاء أو زيادة الأسعار التي دفعت الرعية للاعتراض، مثلما حدث من قيام السلطان الناصرمحمد بن قلاوون بزيادة سعر الصرف **" إذ نودي بالقاهرة أن يكون صرف الدينار بخمسة وعشرين درهمًا بعدما كان بعشرين درهمًا "**، ولما أبدى التجار والصيارفة اعتراضهم وخاطبوا السلطان فى ذلك، لم يقبل وقال : إن لم يرضوا **" عملتوا بثلاثين"**، فأسفر عن ذلك أن توقفت أحوال الناس لزيادة سعر الذهب وتوقف حال البيع والشراء [٢٤].

ومن **التفسيرات الاجتماعية** التي اهتم مفضل بإيرادها حادثة اجتماعية بالغة الخطورة وهي مذبحة اليهود في برشنونة سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، إذ تفرد بها دون غيره من المؤرخين، وكل ما يهمنا بتلك الحادثة أن مفضل بن أبي الفضائل أراد من عرض تلك الحادثة هو أن يفسر أسباب انتشار الوباء في مصر ومن هم المسئولين عن انتشاره، ولم يكن هدفه أن يفسر أسباب قتل اليهود.

يقول مفضل: **"وفيها قتل صاحب برشنونة بها جمعا كبيرا من اليهود، قيل إنهم مائتي ألف، وقيل إن اليهود الذين يلبسون لباس الفرنج يسكنون ببرشنونة، وهي مدينة على ساحل البحر، ويسموا أهلها الكتلانيين، وكان سبب قتل اليهود أن صاحب برشنونة قرب منهم جماعة واستخدمهم فبلغ ذلك الباب فأنكر عليه، والباب عند الفرنج بمقام الخليفة عند المسلمين، أقول : والباب عند الفرنج ما يمكن أحد من الملوك يخالف له أمر، بل خليفة المسلمين يخالف أمره الملوك المتغلبون . ثم إن الباب أمر صاحب برشنونة بقتل اليهود، ومنعه من دخول الكنيسة إن لم يفعل ما أمره به، فقتل جميع من كان بها من اليهود، ولم يبق منهم أحد، وأرماهم في البحرالمالح، فجاف البحر منهم، وقيل إنالرياح حملت رائحة جيفهم إلى الديارالمصرية، فحصل من ذلك أمراض لأكثر أهلها، قل إن سلم منه أحد، ولكنه كان سليمًا يتشوش الإنسان يومين ثلاثة ويبرى، وكان أكثر الناس عندما يتشوش يصرع بغته، فسموا العوام ذلك المرض "اللطاش" وأمره مشهور"** [٢٥].

أما عن **التفسيرات الدينية** للأحداث كالإيمان بالقدر ودوره في تفسير حركة التاريخ، فهو وإن كان يركز في تاريخه على التدابير البشرية إلا أنه لا يغفل الأقدار التي تحدث دون إرادة الإنسان وفاعلياته، وتلك سمة أساسية في كتابات مؤرخي العصر المملوكي ([٢٦]) مثل: ابن عبد الظاهر، وابن شداد والجزري، والبرزالي، واليونيني،وبيبرس المنصوري، والجزري، والنويري، والدواداري، واليوسفي، وتاريخ سلاطين المماليك لمؤلف مجهول .

وسنعرض فيما يأتي بعض الأمثلة على ذلك : -

ما وقع للمسلمين أثناء أحد معاركهم في عهد الظاهر بيبرس، الذي تمثل في هزيمة التتار في وقعة حمص الثانية سنة٦٨٠هـ/١٢٨١م:**"وكان ذلك لطفًا من الله في حق الإسلام،إلا لو رجعوا على المسلمين ما كان بقي منهم من يردهم، فردهم الله على أعقابهم ناكصين،ونصرالله المسلمين على الكافرين"**([٢٧])،ومحاولة قيام الفرنج بغارة على سواحل المسلمين سنة٦٩٨هـ/١٢٩٨م **"أرسل الله تبارك وتعالى عليهم (أي الفرنج) ريحًا مختلفة، ففرقهم جميعهم،وغرق بعضهم ورجعوا خائبين"**[٢٨]،وقوله عن الحملة الصليبية الثامنة على تونس بقياده ريدافرنس:**" فأوقع الله في عسكره وباء عظيما فهلك الفرنسيس وهو ريدافرنس وعدة من الملوك الذين معه بظاهر تونس ورجع من بقي منهم إلى بلادهم بالخيبة"** [٢٩] .

أيضًا فيما يخص استعداد الجيوش الإسلامية للدخول إلى بلاد التتار سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م بعد أن :**"خفقت القلوب،وذرفت العيون، وقاسوا الناس لذلك شدايد عظيمة، من دخول العساكر الإسلامية إلى بلاد العدو"،"وكان على قلوب الامراء من ذلك التجريدة ودخول العساكر الإسلامية إلى بلاد العدو غمة عظيمة"**[٣٠] . لكن تطورت الأمور إلى الحد الذي دفع السلطان الناصر محمد بإلغائها حتى:**"تعجبوا من صنع الله تعالى كيف اعترضه بما لم يكن في حسابه ولا في حساب الجند"** [٣١] .

وبذلك فإن رؤية الدكتور محمود إسماعيل تنطبق على ذلك العصر عندما أورد في سوسيولوجيا الفكر الإسلامي"، بأن العصر المملوكي شاع فيه :**"رد العلل والأسباب إلى العناية الإلهية بوصفها وقائعًا للتاريخ قدرا مقدورًا، وليس فعاليات بشر"** [٣٢].

وعندما تناول مفضل الأخطار التي تعرض لها العالم الإسلامي من الشرق والغرب متمثلة في هجمات المغول والصليبين كان بديهيًا أن يتحمس لانتصارات المسلمين يشهد بذلك عبارات التهكم عقب هزيمة المغول فى ابلستين سنة ٦٧٥هـ واصفًا ذلك بقوله :" **وأنزل سكينته على المؤمنين وخذل القوم الطغاة الكافرين، ففروا فرار الشاة من الذئب وكان يومًا على الكافرين عسير"**[٣٣]، أيضا هزيمة المغول في موقعة الفراة سنة٦٧١هـ بقوله :" **فولوا هاربين وطلع لهم جيوش المسلمين مصطفين مثل الجبال أناقة وارتفاعا وصادفهم الموج حتى كاد من قعقعة السلاح يصم منهم أسماعًا هذا والتتار قد دغروا دغرًا شديدًا، وعادوا بعد اجتماعهم كل منهم وحيد فريدا فنحمد لله على ما أولى وله المنة في الآخرة والأولى وملكوا البر والبحر وطلعت السناجق تبشر بألسنة بنودها أن هلموا إلى النصر وطلع السلطان كالأسد الغضبان، وساق إلى منزلة العدو، فنزل وصلى ركعتين شكرا لله تعالى وكان للأمير سيف الدين قلاوون والحاج علاء الدين طيبرس الوزيري في الاقتحام أعظم ذكر جميل وما من الأمراء إلا وقد فعل كل فعل جليل ..... واحضرت الأسارى بين يدى السلطان من ذات اليمين والشمال والخيول تعثر بركابها في رؤوس الأبطال"** [٣٤]، وغيرها من الأحداث التي كان مفضل يسردها[٣٥].

ونلاحظ أن تلك النظرة في عرض مادته التاريخية لا تختلف عن عرض مؤرخي العصر المملوكي لمادتهم التاريخية، مثل: ابن شداد، وابن عبد الظاهر، واليونيني، وبيبرس المنصوري، والجزري، والنويري، والبرزالي .

ويبدو أن تلك الرؤية ترسخت كذلك في نفوس العامة يشهد بذلك ما ذكره مفضل في حوادث سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، حينما أرسل نائب مدينة عجلون للسلطان الناصر محمد بن قلاوون محضرًا يوضح فيه ما هدمه السيل والذى تضمن بعض العبارات مثل :**"وظن أهلها أن قد أزفت الآزفة، فارتفعت الأصوات بأن ليس لها من دون الله كاشفة فكشفت الرؤوس ووجلت القلوب وذرفت العيون وطاشت الألباب وخضعت الرقاب ومدت الأيدي بالدعاء إلى من بيده أمر الأرض والسماء وعاينوا في ذلك اليوم هولا عظيما، وأشفقوا أن يكون الله أرسل عليهم عذابا أليما فبينما الناس على ذلك الحال ذاهلين يقولون :"ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .....**"(٣٦).

ويمكن أن تدخل **الرؤي** ضمن ذلك الإطار نفسه، فقد عرض مفضل لرواية واحدة في كتابه والتي رآها كافور الإخشيدي، والتي دفعته إلى استئناف الجهاد قائلًا :**" وفي أيام كافور الإخشيدى الذي كان سلطان مصر حصل التهاون في أمر الثغور فقصدها الملك تكفور فاحتمأت عليه فأحرق ضياعها بالنار وقطع أشجارها وأخرب ما حولها من البلاد واتصل ذلك بكافور فتهاون، فرأى ليلة من الليالي في المنام كأنه طلع إلى السماء ومعه قادم وصار يهدم في السماء بيده، فلما أصبح طلب المعبرين وقص عليهم المنام فقالوا : أنت رجل تهدم الدين وتبطل الجهاد، فعند ذلك استيقظ كافور لنفسه وجهز مقدمًا وصحبه جيشًا كثيفًا فدخلوا إلى الثغور وأزاحوا عنها التكفور"**،غير أن غلبة العقل دفعت مفضل إلى الشك في الرؤية المنامية ملقيًا بالتبعية على المصدر الذي نقل عنه_الدواداري_، مقررًا ذلك **" والله أعلم"**(٣٧).

وبذلك فإن مفضل حينما كان يعرض بعض التدابير المنسوبة إلى بعض الأشخاص فإنه أحيانًا ما يقرن ذلك بـ**"والله أعلم بذلك "**، ومن الأمثلة على ذلك، حديثه عن المتهمين بحريق سنة٧٢١هـ/١٣٢١م قائلًا:**"وأحدهم كان قد أسلم تبعًا لأبيه واستمر في دين الإسلام عشر سنين ثم ارتد فأحضر في ذلك الوقت وسئل فاعترف أن أباه أسلم وهو دون البلوغ وعرض عليه الآن الإسلام فأباه ثم ماتوا مسمرين . والله أعلم بحقيقة الأمر في ذلك "**(٣٨).

وعندما تحدث عن مدينة دلهي سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م قال :" **فإنّ الأخبار تواترت بخبر الكنيسة التي بجزيرة أسقوطرة التي على اسم توما صاحب الكف الحي أحد حواري السيد المسيح، وكونها وسط الجزيرة والماء محيط بها...**... منتهيًا بقوله:**" هكذا نقل المؤرخون والعهدة عليهم"**(٣٩).

وأحيانا ما يظهر اهتمام مفضل بالنظرة التأملية فيما وراء الحدث، ويمكن أن نسوق مثالًا على ذلك في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، أرسل هولاكو جيشًا بقيادة "صندغون فحاصرها **" ونصب على الموصل خمسة وعشرين منجنيقا، ولم يكن بالمدينة سلاح يقاتلون به ولا قوت، فاشتد الغلاء، وما إن علم بيبرس بذلك أرسل إليه شمس الدين البرنلي* صاحب حلب في تسعمائة فارس، وأربعمائة من التركمان، ومائة من العرب، إلا أن صندغون قد علم بخروج تلك القوة فكمن لها عند سنجار، وكان النصر حليفه وانهزم البرنلي، ثم عاد مشددًا الحصار على الموصل،إلى أن قام التتار بالتحايل على صاحبها، إذ أرسل صندغون إلى الملك الصالح إسماعيل يمنيه بالوعود الحسنة إذا استسلم وفتح المدينة، وفعلًا فتحت أبواب المدينة واستسلم صاحبها وتوقف القتال . إلا أن التتار غدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف تسعة أيام ووسطوا (ابن الملك الصالح) على الجسر وعلقوه ثم رحلوا،**

وقتلوا الملك الصالح في طريقهم، وهم متوجهون إلى هولاكو" معلقًا مفضل على ذلك **"وانقضت دولة أولاد بدر الدين لؤلؤ من الموصل ..... وكأنهم ما كانوا "**(٤٠)، ويمكن أن نستخلص من النص السابق مدى ضعف مدينة الموصل في العصر المملوكي وشدة سطوة المغول عليهم .

وبالرغم من اهتمام مفضل بالتفسير الاقتصادي والديني، فإنه لا يمكن أن نغفل **التفسير الأخلاقي**، فلم ير مفضل غضاضة في التعرض صراحة لمفاسد أخلاق أبناء السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومنهم : (أنوك) الذي شغف بمغنية تُعرف بأرغون الزهرة وعندما علم السلطان بذلك **(أمر بأن يلزم ساير المغاني بالزواج، ففيهم من تزوج وفيهم من تاب عن الغناء .فحصل عند أنوك ولد السلطان أمر عظيم وأرسل إلى المغنية ..... وصار يجتمع بها في بعض الأوقات سرًا)**(٤١).

أيضًا ابنه (أحمد) الذي فسد حاله**"وشغف بشاب من أولاد الكرك وأنه ما كاد يفارقه ساعة واحدة ويشرب معه "** (٤٢)، ولما علم السلطان بذلك أمر بحبس الشاب، فشق ذلك عليه وهدد بقتل نفسه، وامتنع عن الطعام والشراب حتى أفرج عنه السلطان، وسافر إلى الكرك . ونتيجه لانحلال خلقه أوصى السلطان الناصر الأمراء وهو يحتضر سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م بوصية لا يخرجوا عنها:**"إياكم وولدي أحمد أن تحضروه من الكرك وتولوه الملك، فهو سيكون سببا لخراب المُلك بعدي"**(٤٣). كذلك ابنه (أبو بكر) الذي اعتمد خادمه على أخذ أموال الناس على سبيل القرض **(ومن امتنع من ذلك صادره وأن يبلغه عنه من الفواحش ما ملأ آذانه)**(٤٤).

ونتيجه لذلك اهتم مفضل بذكر تعليق السلطان الناصر بشأن أفعال أولاده المخُجلة: **(والله لقد حرت من هؤلاء الأولاد المناحيس. سيرت أحمد إلى الكرك عمل فيها من اللعب واخراق حرمة السلطنة وما سمعتوه . والآخر صادر الناس وأخذ أموالهم)** (٤٥).

كما تعرض لمفاسد الوزراء والنواب عن طريق السطو على أموال الناس بالباطل، مثل النشوالذي كان يتعدى على أكابر الأمراء ويصادرهم ويتخلص من كل من يعترض طريقه (٤٦)، كظلمه للعماد الدمياطي مستوفي الجهات **(فخرج النشو وجلس في دار الوزارة ..... وصادر يعقوب المذكور وقتله بالمقارع وتتبع ساير أهله وأصحابه حتى بعض مغاني القاهرة صادرها وادعى أن يعقوب أنفق مال السلطان عليها)** (٤٧)، ومحاولة النشو الاستيلاء على أموال القاضي عز الدين بن جماعة على سبيل القرض **(بعدما علم أنه ورث من أبيه ثمانين ألف دينار)**(٤٨).

كما أشار إلى دور المرأة على المستوى الأخلاق، عندما تحدث عن امرأة استخدمت البغاء بوصفه أداة في ارتكاب الجرائم مثل السرقه والقتل :**" فقد عثر في خليج القاهرة في سنه٦٦٢هـ، على قتلى كثيرين، واتهموا بهم جماعة من الناس واستمر ذلك لفترة ثم تبين أن أمرأة حسناء تدعى غازية كانت تتبهرج في زينة فاخرة وتطمع من يراها في نفسها، وصحبتها عجوز تتحدث عنها لمن يروم منها الفساد، فتقول له أنه لا يمكنها أن تجتمع بأحد إلا في بيتها خوفا على نفسها، فمن حمله الغرض لفروغ الأجل تقع الموافقة على ذلك فيذهب معها، فإذا حصل عندها خرج عليه رجلان فيقتلاه ويأخذا ما معه وما عليه من الثياب، وكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان خوفا ليُعلم بحالهم إلى أن سكنوا خارج باب الشعرية ....."** (٤٩).

أضف إلى ما سبق تعرضه لأخلاقيات وفيات عصره بكل موضوعية ؛ وأقصى ما كانت تتناوله يداه أن ذلك الرجل**"أراح الله من شره"** (٥٠)، مثل ترجمتة لمنكوتمر**"أن**

القاضي أسقاه سمًا فمات منه وأراح الله من شره"، وأرغون التتري" **كان سفاكًا للدماء شديد البطش والكفر فأراح الله من شره وكفره"**[٥١]،أو أنه يذكر صفاته العامه من سمو أخلاق أو وقارأو ملاحة شكل، مثل ترجمتة لأمير العرب الحاج محمد بن شرف الدين عيسى بن مهنا **"وكان من أعيان أمراء العرب حسن الهيئة مليح الشكل عاقلا عارفا بالأمور"**، والقاضي تاج الدين المعروف بالطويل ناظر الدواوين في مصر" **كان فيه من الكفاية والمروءة والاصطناع والبر والصداقة ما لايوصف"**، والأمير سيف الدين طغاي تمر العمري الساقي وكان من الأمراء الخاصكية الكبار **" ولم يكن أحسن منه في وقته صورة ولا شكلا"**[٥٢].

يرى الدكتور محمود إسماعيل :**"إذا كان غياب النقد سمة أساسيةفي كتابات مؤرخي العصر المملوكي؛ فلم يكن ذلك إلا نتيجة لذيوع "التقليد"، فتحول النقد إلى "الانتقاد" لكتابات الخصوم بهدف دحضها بالحق أو بالباطل؛ ونظرًا لتدهور العلوم الدنيوية وتفشي الجهل؛ لم يعول المؤرخون على "السببية" في تفسير الأحداث، وشاع رد العلل والأسباب إلى "العناية الإلهية" على أن وقائع التاريخ قدرًا مقدورًا، وليس فعاليات بشر. بل هى نتاج كرامات الأولياء ومعجزات الأقطاب عند المؤرخين المتصوفة. وفي ذلك الإطار عُدت الكوارث الطبيعية والنوازل والنكبات انتقاما إلهيا لخروج البشر عن جادة الشريعة، وغلبت الرؤية الغيبية والخرافية على منظور المؤرخين في التعليل والتأويل والتفسير"** [٥٣].

لذلك غصت كتب المؤرخين **بالتفسيرات اللاعقلانية** غير العلمية الممزوجة بالكرامات والنبوءات. ومن هنا نالت كرامات رجال الدين نصيبًا من كتاب مفضل بن أبي الفضائل، فحينما يتعرض لأحدهم يذكر بأنه **(تحكى عنه كرامات كثيرة)** [٥٤]، وساعد مفضل على الاهتمام بذكر تلك الكرامات هو إيمان السلاطين أنفسهم بكرامات رجال الدين وقدرتهم على التنبؤ، فمع جبروت السلطة المملوكية كان السلطان يؤمن بالتصوف ويخضع للشيخ الصوفي يلتمس منه البركات، فالظاهر بيبرس بدهائه وسطوته واستبداده دأب على التردد على الشيخ خضر في حال خروجه على رأس جيشه لفتح إحدى المدن أو القلاع نذكر من ذلك على سبيل المثال حينما أراد التوجه إلى حصن الكرك، أشار عليه شيخه بأن لا يقصده **:" ليس لك في ذلك خيرة بل اقصد مصر"**، فخالفه بيبرس وتوجه إلى الكرك فانكسر فخده، وذهب الأمر أبعد من ذلك حينما تمت محاكمة الشيخ لانحلاله الخلقي أشار الأمراء على السلطان بقتله، فأخبره شيخه:**" يابيبرس أنا أجلى قد قرب وأيضًا أجلك وبيني وبينك مدة أيام يسيرة من مات منا قبل صاحبه لحقه الآخر عن قريب،فافهم هذا"**[٥٥].

لذلك السبب خشى السلطان قتله واكتفى بحبسه لأنه يعتقد في ولايته وفي معرفته للغيب. ولما قُتل الشيخ، توفى بعده بيبرس بأيام قليلة . ويبدو أن مفضل كان يشكك في تلك الرواية التي غلفها بطابع الشك قائلًا :**" إما عن اطلاع وإما صدفيات والله أعلم "**[٥٦].

وأخبار"الشيخ سيف الدين أبو الحسن علي بن منكبرس" في القاهرة سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، الذي كتب (وفق)، يشفي به مرضى القولونج، يصفه مفضل بأنه **" مكون من أربعة عشر بيتًا، يكتب على لوح نحاس أو فضة أو ورق ويغسل بماء مطر أو بماء طاهر ويسقى لصاحب القولنج يبرأ بإذن الله للوقت"**[٥٧].

كان حتمًا من جراء النظرة الانقيادية للسلاطين وراء رجال الدين أن يتمتعوا بالمكانة الرفيعة، فكان رأيهم ومشورتهم نافذة ونفوذهم واسع، وكانوا أصحاب القرار في عدة أمور، بل وأطلقت أيديهم في أمور الدولة يتصرفون فيها كيفما شاءوا، فعمد الشيخ خضر إلى هدم كنائس النصارى مثل : كنيسة المصلبة بالقدس وقتل قسيسها، وأقر مفضل ذلك بقوله : **" كان يتصرف في جميع مملكة الظاهر بما يختار ويريد، وكان يَحكم ولا يُحكم**

عليه " [٥٨]، مما يوضح مدى سطوة الشيوخ على السلاطين، فضلًا عن " التاج بن سعيد الدولة " ومكانته لدى " بيبرس الجاشنكير"، فيروى مفضل عنه قائلاً :**" وكانت حرمته أكبر من حرمة الوزير وكلمته أنفذ من كلمته .... ولا يكاد يخرج لأحد توقيع حتى يعلم عليه التاج بن سعيد الدولة أولا قبل السلطان فإذا رأى السلطان خطه علم، وذلك لم يتهيأ لغيره من قبله** " [٥٩] .

وصل الأمر أبعد من ذلك إلى حد الإسراف في التملق بالراهب " برصوما العريان" مبينًا قدرته على التنبؤ بالغيب وشفاء الناس والسعة في زيادة أرزاقهم ؛ ضاربًا المثل بعدة قصص اصطلح على تسميتها:**"أعجوبة "** منوهًا لذلك بقوله :**" ونحن نذكر ها هنا ما يليق بذلك المختصر من عجائبه"**، وفي موضع آخر **" ذكر يسير من الآيات التي أظهرها الله تعالى على يديه** " [٦٠]، مختتمًا تلك العجائب **بـ " وذلك يسير من كثير من عجائبه** " [٦١]، وتلك العجائب لا تقل شأنًا عن تلك الكرامات المذكورة في تراث تلك الفترة للصوفية والزهاد المسلمين؛ إذ كان للنبوءات نصيب من كتابات مؤرخي العصر بعامة مثل: ابن شداد وابن عبد الظاهر واليونيني والنويري والجزري، ولدى المؤرخين النصارى خاصة والأمثلة على ذلك فى كتاب النهج كثيرة منها : نبوءة الراهب برصوما بموت الملك الناصر محمد بن قلاوون "..... **السلطان لا يموت حتى يطلع النيل فوق الرصد..... وكان ذلك الكلام عندهم كالهزوء وما عرف تأويله ..... ثم إن السلطان رسم بعمارة سواقي فوق الرصد وجر الماء من البحر إليها فلما انتهت تلك السواقى وشالت الماء إلى علو الرصد ومنه إلى المجراة التي تحمل الماء إلى القلعة حصل للسلطان ضعف . فأدرك قول أبونا برصوما** " قائلًا :**" والله العريان الذي بدير شهران قال لي هكذا إن السلطان ما يموت حتى يطلع النيل فوق الرصد ولو فكرت في ذلك ما عمرت السواقي ولكن ما بقى فيها حيلة "**[٦٢] . وتحققت تلك النبوءة بوفاة السلطان في نفس العام .

كما ذكر مفضل قدرة الراهب في إعادة الصحة لمن استعصى شفاؤه من ذلك على سبيل المثال أمرأة مات طفلها في رحمها واستمرت عامين على ذلك الحال (..... **وعجزت الأطباء في معالجتها فتوجهت إلى عند أبينا برصوما فأعطاها ماء فشربت منه وللوقت تقطع الولد ورمته من جوفها وجاف من رائحته الدير ووعدها ان شاء الله تعالى يعوض عليها عوضه فكان الأمر كذلك ورزقت ولد وأسمته الأمجد فضل الله وهو حي إلى سنة ألف اثنين وسبعين للشهداء)** [٦٣]، بالإضافة إلى ولع مفضل بالأحداث الغريبة التي وقعت في تلك الفترة مما اصطلح على تسميتها **"نكتة غريبة"**، فضلًا عن سرده لكثير من العجائب التي ظهرت في البلاد، مثل الدابة العجيبة التي ظهرت في نيل مصر سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م [٦٤].

خلاصة القول: إن اشكالية التفسير تنوعت في كتاب مفضل فكانت مزيجًا مابين إعمال العقل والفكر إلى تأثر بطبقة حاكمة سيطرت عليها روح المعجزات والتنبوءات والكرامات؛ أضف إلى ذلك تفسيرات اقتصادية واجتماعية، ناهيك عن استخدامه التفسيرات الأخلاقية.

المقاصد والغايات

تنوعت مقاصد وغايات المؤرخين في ذلك العصر، وتعددت أهدافهم ؛ وغالبًا ما أشاروا إليها في مقدمات كتبهم، وهي تدور حول غايات أخروية وأخرى دنيوية، فمنهم من ذكر أن غايته من التاريخ الظفر بثواب الآخرة، وهناك من أرادوا من كتبهم غرس الفضائل والأخلاق المتمثلة في الوعظ والعبرة، وأخرون كتبوا فيه إشباعًا لهواية الشغف لديهم

بالتاريخ[٦٥]؛ ولم يكن ذلك السبب دائمًا هو المراد من وراء كتاباتهم جميعًا بل إن هناك ثلة من المؤرخين كانوا يؤلفون تاريخهم خصوصًا في مجال استنفار الحكام والرعية لجهاد الصليبين والمغول، ولكن اختلفت أيضا الأهداف لدى المؤرخون النصارى أمثال مفضل بن أبي الفضائل، الذين أرادوا نشر فضائل المسيحية وتعليم المحبة ومعرفه أخبار الرعاة من خدام الكلمة من خلال كتابة التاريخ الكنسي والبطاركة الي عاقبة وغيرهم [٦٦]، وضمن الرهبان الذين ذكرهم مفضل (الراهب برصوما العريان)، مبينًا قدرته على التنبؤ بالغيب؛ فضلًا عن قدرته في شفاء الناس والسعة في زيادة أرزاقهم ضاربا المثل بعدة قصص منوهًا على ذلك بقوله: **" ونحن نذكر ها هنا ما يليق بهذا المختصر من عجائبه" و"ذكر يسير من الآيات التي أظهرها الله تعالى على يديه".**[٦٧] وانفرد مفضل بإيراد تلك العجائب.

بالاضافة لذكر مفضل بعض الحوادث التي تعرض لها الرهبان مثل : حادثة الراهب الحبيس سنة ٦٦٣هـ الذي أمر السلطان بيبرس بقتله **(وكان ذلك الحبيس ..... وجد في مغارة مالًا ..... فلما حصل له ذلك المال وفد الفقراء والصعاليك من سائر الأديان ..... وكان يدخل الحبوس ويطلق منها من كان عليه دين .... وكذلك سافر إلى الاسكندرية، فرأى أهلها منه ما هالهم، فوصلت فتاوى الفقهاء من أهلها بقتله)** [٦٨]، والحادثة التي وقعت في القاهرة سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م إذ ثار في القاهرة شخص من سكان الحسينية:**"وصار يضرب بالسيف من يظفر به من اليهود والنصارى .... وسئل عن سبب فعله، فقال: قمت لأنصر دين الله، وأقتل أهل الذمة "** [٦٩].

ولم يكتف بذلك بل كان لديه هدف آخر وهو إلقاء الضوء على التاريخ الكنسي في ذلك العصر من خلال ذكر بعض الأحداث الكنسية، مثل : إثبات حالة الرشوة داخل الكنيسة عندما ذكر أخبار البطريرك ٧٧ و٧٨ وهما (البطريرك غبريال"جبريل" الثالث، والبطريرك يؤانس"يوحنا" السابع) اللذان توليا منصب البطركية في نفس الوقت، إذ ذكر مفضل بعد وفاة البطريرك ٧٦، تنافس على منصب البطريكية راهبان أحدهما اسمه يوحنا والآخر غبريال، فوقع الاتفاق على غبريال لتولي المنصب وبالفعل تمت رسامته بطريركا . ومع ذلك لم يرض الحزب المؤيد ليوحنا فعمدوا على استرضاء أرباب الحكم بمبلغ قدرة ٥٠٠٠ دينار ليشدوا أزرهم في انتخاب يوحنا وإبطال رسامة غبريال وبالفعل تمكنوا من إقامة يوحنا بطريركًا باسم يوأنس السابع . [٧٠]وكان مفضل الوحيد المنفرد بتلك الحادثة عن مؤرخي عصره مما يدل ذلك على كونه من رجال الكنيسة أو من المقربين منها مما يتيح له معرفة المعلومات الدقيقة داخل الكنسية .

كما كان لمفضل أسباب أخرى في كتابته لتاريخه تكمن في استعراض الموضوعات التاريخية للتذييل على تاريخ ابن العميد المعروف بالمكين، والتي تتوقف كما هو معلوم تفاصيل حولياته ومروياته إلى فترة حكم الظاهر بيبرس لمصر، وقد أراد مفضل استكمال مابدأه الآخر فوضع كتابًا ليكون متممًا له، على نهج ما كان معروفا في الكتابات التاريخية وغيرها في العصور الوسطى فيما عرف بالتذييل أوالتكملة، وبالفعل أكمل تاريخه إلى آخر الدولة الناصرية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وذكر الاحداث العامة والخاصة في تلك الفترة (.... **وبعد إنني لما طالعت تاريخ المرحوم الشيخ جرجس ابن العميد ورأيت مدته تنتهي إلى أول الدولة الظاهرية بيبرس البندقداري، وذلك يوم الأحد سادس عشر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة للهجرة، لتمام ستة آلاف وسبعمائة واثنتين وخمسين سنة وشهرين وأحد عشر يومًا للعالم شمسية، وأن زماننا ينتهي إلى آخر الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، فرأيت أن أضيف إلى ذلك ما تجدد من ابتداء الدولة الظاهرية من الحوادث والمتجددات العامة مرة والخاصة أخرى مستمدًا من مشيد الأعمال، ومبلغ الآمال بالسلامة فيتلك الدار وحسن المآل"**[٧١].

الخاتمة

يمكننا أن نستخلص نتائج تلك الدراسة فى عدة نقاط تكمن فى : الإسهامات الجديدة التي ذكرتها الدراسة والتي تتمثل في سمات العصر التي وقفنا عليها من خلال التفسير والتعليل لدي مفضل في كتابه النهج السديد،فضلًا عن الأخطاء التي تمت معالجتها، والإشكاليات التى تم تجاوزها.

كما تعتبر تلك الدراسة تعبيرًا عن المؤرخ مفضل بن أبي الفضائل، حيث تميزت بأنها تتعلق بالتعليل والتفسير في"النهج السديد" بعبارة أخرى؛ يختص بالرؤية وفي هذا الصدد؛ تبين لنا أن مفضل علل الأحداث المفردة تعليلات شتى، فكانت مزيجًا مابين إعمال العقل والفكر إلى تأثره بطبقة حاكمة سيطرت عليها روح المعجزات والتنبوءات والكرامات؛ أضف إلى ذلك تفسيرات اقتصادية واجتماعية، ناهيك عن استخدامه التفسيرات الأخلاقية.

فضلًا عن المقاصد التي أرادها مفضل من كتابة مؤلفه، والتي تعد اشكالية اختلف حولها الباحثين لانها كانت بمثابة الباب الذي يضيء للباحثين ديانة المؤرخ التي أجزمنا بأنها النصرانية لعدة أسباب ذكرناها في دراستنا لمقاصده وغاياته في كتابة التاريخ بالمقارنة مع مؤرخي عصره وسمات الكتابة التاريخية انذاك.

Abstract

Explanation and interpretation of Mufaddal bin Abi Al-Fadael in his book "Al-Nahj Al-Sadeed and Al-Dur Al-Farid ba'id Tareekh Ibn Al-Ameed"

By Amira Abdul-Mawgod Ahmed Muhammad

This dissertation is about "Mufaḍ ḍ al Ibn Abi-l-Faḍ ā'il" who is one of themost prominent historians in the Mamluk period. It contains a biography of all the available information about Mufaḍ ḍ al and his personality. Then, it includes a detailed analytical study of his historical work "al-Nahj al-sadīd wa-l-durru al-farīd fīmā ba'd tārīḫ Ibn al-'Amīd" which helps in having a clear idea about his thoughts, culture, referentiality and historical methodology. It also serves in knowing the authenticity of the information mentioned in his book through comparing its historical narrations to those of some other contemporary historical sources. This results in recognizing the value of this historical compilation as an Islamic, historical source of the Mamluk period.

This study is target to "justification and elucidation" discusses the objectives of his book. Finally comes the conclusion which includes the most important results of the study, followed by the list of the Arabic and foreign sources and the references which the researcher used in this thesis.

الهوامش

(١)النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٤٠٨-٤٠٩

(٢) تاريخ حوادث الزمان، ج٢، تحقيق، عمر تدمري، بيروت ١٩٩٨، ص ٦٧

*خوظه : خطأ وصوابه : خوضه

(٣)مفضل، المصدر السابق، تحقيق: سميرة كورتنمّر، ص ٢٨.

**سرنديب : هي جزيرة عظيمة في بحر هركند في أقصى بلاد الهند، طولها ثمانون فرسخًا في مثلها، ومعنى ديب بلغة الهنود أي الجزيرة، انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢١٥-٢١٦.

* **بازٌ :** جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم، من فصيلة العُقاب النَّسريَّة، تميل أجنحتها إلى القِصر، وتميل أرجلها وأذنابها إلى الطّول، ولها مهارة فائقة في الصيد، ومن أنواعها : الباشِق، والبَيْدق . انظر:

https://www.almaany.com

(٤)مفضل، النهج، تحقيق : بلوشيه، ص٦٩٤– ٦٩٦.

* ظهر اهتمام مفضل بقصه رجل فقير استطاع أن يتحدى ملك سرنديب والبراهمة بالنزول إلى قاع البحر للحصول على الجواهر التى بقاعه ومواجهه التماسيح والحيوانات، ونجح الفقير فى الحصول على جوهرة افتخر بها ملوك سرنديب وتوارثونها، انظر : النهج، تحقيق : بلوشيه، ص٦٩٤-٦٩٦ .

* **رتن معمر الصحابى** : ذكر الذهبي حديثًا لرجل كذاب ظهر بعد القرن السادس، وادعى أنه صحابي معمر، وهو رتن الهندي، وكذب أحاديث زعم سماعها من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، ثم قال الإمام الذهبي بعد إيراده حديثًا لهذا الكذاب : " قلت: إنماذكرت هذا للفرجة، وإلا فهذا النمط أقل من أن يعده الحفاظ في الموضوعات، بل إذا سمعوا من يذاكر به تعجبوا وقالوا : { ويخلق مالا تعلمون } . وهذه عجيبة من عجائب بحر الهند " انظر : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٥١، تحقيق :عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت١٩٨٧م، ص٢٥٧ ؛ ويقول" الذهبي" أيضا في كتاب "ميزان الاعتدال فى نقد الرجال" : (رتن الهندي وما أدراك ما رتن ! شيخ دجال بلا ريب، ظهر بعد الستمائة فادعى الصحبة، والصحابة لا يكذبون . وذلك جريء على الله ورسوله، وقد ألفت في أمره جزءا وقد قيل : إنه مات سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . ومع كونه كذابا فقد كذبوا عليه جملة كبيرة من أسمج الكذب والمحال" انظر: ج٢، تحقيق : محمد رضوان، دمشق٢٠٠٩م، ص٤٣.

***قدم آدم :** فإنه فوق سطح جبل عال، يقال له " الرهون" وهي قدم واحدة مغموسة في الحجر طولها نحو سبعين ذراعا، ويزعمون أنه خطا الخطوة الأخرى في البحر، وهو منه على مسيرة يوم وليلة، ويُرى

على ذلك الجبل في كل ليلة كهيئة البرق من غير سحاب ولا غيم، ولا بد له في كل يوم من مطر يغسله يعني موضع قدم آدم عليه السلام، انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٣، ص ٢١٥-٢١٦ ؛ ولما وصل إليه الإسكندر ركب على طرف الجبل سلسلتين حديد بحلق كبار سعة ذراع،والزوار حين يصلوا إلى القدم المبارك، قيل عنه إن كل من اضجع فيه من الناس طويلًاكان أو قصير تكون القدم بطوله، وهذا سر عجيب، انظر: مفضل، النهج، تحقيق : بلوشيه، ص٦٩٧-٦٩٨

***دير مر توما :** يُعدُّ مار توما السابع بين الاثني عشر حواريى السيد المسيح، دعي بالسريانية توما، أي التوأم، قدم من فلسطين إلى العراق وبعدها إلى بلاد فارس وتوغل في أدغال الهند مبشرًا، حيث استشهد وقبره في جناي الحالية شرقي شبه القارة الهندية، ويوجد بالدير طاقة وفيها اليد، وأنه يرشح منها دهنا، انظر: مفضل، المصدر السابق، ص٦٩٩ ؛

http://www.syrian-orthodox.com

(٥)مفضل، المصدر السابق، ص٦٩٩.

(٦) مفضل، النهج،تحقيق بلوشيه، ص ٦٠١، ٦٧٧، ٧٦٨ــ ٧٦٩ .

(٧)بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص٢٣٧ .

(٨) الدُر الفاخر، ص٢٨٩ .

(٩) النهج، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٨٣-٨٨، ٩٢-٩٣ .

(١٠) نفسه، ص ٩٤.

(١١) مفضل، النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٤٤٤-٤٤٥.

*إحدى مماليك الملك العادل كتبغا، انظر : مفضل، المصدر السابق، تحقيق : بلوشيه، ص٤٢٤

(١٢) نفسه، ص٤٢٤ .

(١٣) نفسه، ص ٩٥-٩٦ .

(١٤) نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ١٢ .

(١٥) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص٥٣١-٥٣٣ .

(١٦) نفسه، ص٧٢، ٧٧، ص٤٢٧ــ ٤٢٨، ص ٥٣٧ــ ٥٣٨، ص٧٢٣ ؛ نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص٢٢، ٢٦، ٣٠، ٤١-٤٢، ٦١-٦٢، ٧٧-٧٩، ٩٩.

(١٧) النهج، تحقيق : بلوشيه، ص٢٨٣-٢٨٨ .

(١٨) نفسه، ص٤٢٩-٤٣٠ .

(١٩) نفسه، ص ٥٦٥-٥٦٦ .

(٢٠) النهج، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٦٨ .

(٢١) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٨٣ .

(٢٢) نفسه، ص ٥٣٧ــ ٥٣٨.

(٢٣) نفسه، ص ٧٠٨ .

(٢٤) نفسه : سميرة كورتنمّر، ص٧٩ .

(٢٥) النهج، تحقيق : سميرة كورتنمّر،ص١٢ ؛للتفاصيل حول مذبحة اليهود وما يصحبها من ملابسات انظر :

René Lavenant, Le massacre des juifs de Barcelone en 1320 d'après l'histoire des sultans mamelouks de Mufaʿáal B. Abí l-Faʿâʾil , Annales de l'Institut de lettres orientales , Université Saint-Joseph, Faculté des lettres et des sciences humaines, Institut de lettres orientales , Vol 9 , 2002 - 2010 , Pp 131-137 .

(٢٦) سوسيولوجيا الفكر، ج٩(طور الانهيار٤)، ص٢٧ .

(٢٧) مفضل،المصدر السابق، تحقيق : بلوشيه، ص ٣٣٠ .

(٢٨) نفسه، ص ٤٦٤ــ ٤٦٥ .

(٢٩) نفسه، ص١٢٢.

(٣٠) تفسه، ص ١٠٠- ١٠٣.

(٣١) نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص١٠٣- ١٠٤ .
(٣٢) سوسيولوجيا الفكر، ج٩، ص٢٧ .
(٣٣) مفضل، النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٦٠-٢٦١ ؛ سند أحمد، ابن شداد مؤرخًا، ص ٢٥٥ .
(٣٤) مفضل، المصدر السابق، تحقيق : بلوشيه، ص٢١٤ ــ ٢١٥ .
(٣٥) نفسه، ص ٥٤٢ ــ ٥٤٣ .
(٣٦) النهج، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٤١ــ ٤٢ .
(٣٧) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٣٣ ؛ سند أحمد، ابن شداد مؤرخًا، ص ٢٥٢ .
(٣٨) مفضل، المصدر السابق، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ١٥ .
(٣٩) نفسه، ص ٢٨ .
*للتفاصيل انظر : وديع فتحي عبد الله، الأمير الثائر شمس الدين أقوش البرنلي المتغلب على حلب بين المماليك والمغول(٦٤٨-٦٦١هـ/١٢٥٠-١٢٦٢م)، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، عدد١٢، ج٢، يناير ٢٠٠٥م، ص٦١٥-٦٩١.
(٤٠) النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٩٤-١٠٠ .
(٤١) نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٨٠ -٨١ .
(٤٢) نفسه، ص٧٤.
(٤٣) نفسه، ص ٩٦-٩٧، ١٠٥-١٠٦ .
(٤٤) نفسه، ص ٨١.
(٤٥) نفسه، ص٨١.
(٤٦)النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٧٧-٧٨، ٨١ .
(٤٧) نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٧٦ .
(٤٨) نفسه، ص ٧٢ .
(٤٩) نفسه، ص١٢٤ــ ١٢٦ .
(٥٠) نفسه، ص٣٣٤، ٣٨٦ .
(٥١) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص٣٣٤، ٣٨٦ .
(٥٢) نفسه، ص ٧٢١ ؛نفسه، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٥٨ .
(٥٣) سوسيولوجيا الفكر، طور الانهيار، ج٩، ص٢٧.
(٥٤) النهج، تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص ٦٧ .
(٥٥) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٩٨ ؛ أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف،القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٨ ؛ سند أحمد، ابن شداد، ص ٢٤٩-٢٥٠ .
(٥٦) مفضل، المصدر السابق، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٩٦ .
(٥٧) النهج، تحقيق: سميرة كورتنمّر، ص ١٩-٢٠ .
(٥٨) نفسه، تحقيق : بلوشيه، ص ٢٩٥ ؛ سند أحمد، ابن شداد مؤرخًا، ص ٢٥٠ .
(٥٩) مفضل، المصدر السابق، تحقيق : بلوشيه، ص٦٨٠-٦٨١ .
(٦٠) نفسه، ص ٦٦٥ــ ٦٧٢ .
(٦١) نفسه، ص ٦٧٣ .
(٦٢) مفضل، النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٦٦٥- ٦٧١ .
(٦٣) نفسه، ص ٦٧٠ .
(٦٤) نفسه، ص ٥٨٨-٥٩١ ؛ تحقيق : سميرة كورتنمّر، ص١٦، ٢٣، ٢٦، ٨٢، ٣٦، ٦١، ١٨٢-١٨٤.
(٦٥) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر، ج٩، ص ٢٨ .
(٦٦) نفسه، ج٩، ص ٩٤ .
(٦٧) النهج، تحقيق : بلوشيه، ص ٦٦٥-٦٧٣ .
(٦٨) نفسه، ص١٣٣-١٣٦ .
(٦٩) نفسه، ص ٧٤٩ .
(٧٠) النهج، تحقيق: بلوشيه، ص ٢٨٣-٢٨٧ .
(٧١) نفسه، ص ٦٥ .

قائمة المصادر والمراجع

- ابن أبي الفضائل (مفضل بن أبي الفضائل ت بعد ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، حوادث الفترة ما بين عاميّ ٦٥٨هـ/١٢٦٠م-٧١٦هـ/ ١٣١٦م تحت عنوان تاريخ سلاطين المماليك، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه Blouchet في دورية :

Patrologia Orientalis , xii , xiv , xxii , Paris 1919.

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، حوادث الفترة ما بين عاميّ ٧١٧هـ/١٣١٧م-٧٤١هـ/١٣٤١م، تحت عنوان تاريخ مصر وسوريا، حققته وترجمتة إلى الألمانية :

SamiraKortantamer, Ägypten und Syrien zwischen 1317 und 1341 in der Chronik des Mufadal b. Abī l-Faā'il.(Islamkundliche Untersuchungen, Bd.23),Freiburg im Breisgau: Klaus Schwarz Verlag,1973

- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر عبد الله بن أيبك ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٩ (الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق : هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٩٦٠ .
- بيبرس المنصوري الدوادار نائب السلطنة بمصر ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق :عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة ١٩٨٧م .
- الجزرى (شمس الدين أبى عبدالله محمد بن ابراهيم بن أبى بكر القرشى ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، تاريخ حوادث الزمان، (عدة أجزاء)، تحقيق : عمر عبد السلام تدمرى، بيروت ١٩٩٨م
- الذهبي(الحافظ شمس الدين أبو عبد الله ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (ج٥١)، تحقيق:عمر عبد السلام تدمري، بيروت ٢٠٠٠م ؛ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : ج٢، تحقيق : محمد رضوان، دمشق ٢٠٠٩م.
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، ج٣، بيروت ١٩٧٧م .
- أحمد صبحى منصور، العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف، القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٨.
- سند أحمد عبد الفتاح،عز الدين بن شداد مؤرخاً، رسالة دكتوراة، كلية الآداب–جامعة عين شمس، القاهرة ٢٠٠٤م.
- وديع فتحي عبد الله، الأمير الثائر شمس الدين أقوش البرنلي المتغلب على حلب بين المماليك والمغول(٦٤٨-٦٦١هـ/١٢٥٠-١٢٦٢م)، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، عدد١٢، ج٢، يناير ٢٠٠٥م .

René Lavenant ,Le massacre des juifs de Barcelone en 1320 d'après l'histoire des sultans mamelouks de Mufaʿâal B. Abí l-Faʿâ'il , Annales de l'Institut de lettres orientales , Université Saint-Joseph, Faculté des lettres et des sciences humaines, Institut de lettres orientales , Vol 9 , 2002 - 2010 , Pp 131-137

مواقع الانترنت :

https://www.almaany.com

http://www.syrian-orthodox.com

Ain Shams University
Faculty of Arts
History Department

A proposal for the Masters Degree in Islamic history Entitled

Prepared by
Amīra Abd El-Mawgoūd Ahmed

Under the Supervision of

Prof. Dr./
Maḥmoūd Ismā'īl 'Abd al-Rāziq
Professor of Islamic History and Civilization
Faculty of Arts
Ain Shams University

Dr./
Ğādah Kamāl
Doctor of IslamiHistory
Faculty of Arts
Ain Shams University

Cairo
2018